

الأسرة، التلفزيون والتنشئة الاجتماعية

بلحضري بلوفة⁽¹⁾

* مقدمة:

يصب موضوع التنشئة الاجتماعية في قالب دور الوسائط الإعلامية لا سيما التلفزيون وهو يسهم في رسم بعض الأنساق الاجتماعية في خضم المتغيرات الاجتماعية الراهنة التي ساهمت بقسط كبير في حراك مفتوح جراء الانفتاح على السيل العرم من القنوات الفضائية، إلى جانب التحديات التي تجابه الأسرة الجزائرية من حيث الدور المنوط بها الذي يتعدى آليات الوظيفة التي أسست من أجلها إلى القيام بدورها الذي أوجدت من أجله، من حيث سعيها في أحد مطالبها إلى توريث رأسمال العائلة الممتدة للأجيال اللاحقة.

ولقد حاولت في هذا الصدد استثمار تلك الحركية التي تربط عملية التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة بعملية التواصل مع التلفزيون لإبراز أهمية هذا الأخير في كنفها وما ينجر عنه على المستوى الاجتماعي، حيث أضحي التلفزيون ينافس في أحد أدواره الأسرة في مهمتها التنشئية، مما يضع الأسرة أمام عدد من الرهانات التي وضعتها أمام المسألة تبحث عن إجابة عن التساؤل الآتي: إلى أي مدى شكل التلفزيون عاملا مهما في التنشئة بالمجتمع الجزائري؟

1. التنشئة الاجتماعية:

ترتبط عمليتا التنشئة الاجتماعية والاتصال ببعضهما ارتباطا بالكل، فكل منهما يؤثر في الآخر إلى درجة يكون فيه الاتصال محور التنشئة الاجتماعية. فالفرد يكتسب ثقافة مجتمعه بما في ذلك المعتقد والعادات والتقاليد والقيم وأنماط السلوك انطلاقا من الأسرة. هذه المؤسسة التي تهيئ له سبل النمو والتحول من كائن بيولوجي يأكل ويشرب إلى كائن اجتماعي يتقمص ويمارس الأنماط السلوكية لأفراد مجتمعه.

إن التنشئة الاجتماعية كعملية تجمع بين التربية والتعليم، هي دوما بحاجة إلى التواصل بين عدد من المستويات والمؤسسات الرسمية كالأسرة والمدرسة وغير الرسمية كجماعة الأقران وفضاء اللعب على امتداد الحياة، نظرا لأهمية الدور المنوط بها في توريث الطفل القيم الاجتماعية السائدة في البيئة المحيطة به، حتى يألف أحكامها الخلقية ويتعلم الضبط الذاتي الذي يطبعه بالطابع الاجتماعي ويسر له مهمة الاندماج في الحياة الاجتماعية بمختلف خصائصها كتعلم أساليب الاتصال، وتهيئته بوجود هدف مشترك يسعى الأعضاء إلى تحقيقه.⁽²⁾

ومنذ سنوات السبعينيات كان الاهتمام في البحوث الاجتماعية والإنسانية عامة والسوسيولوجية خاصة، منصبا حول المنظور الذي يعتبر مؤسسات التنشئة الاجتماعية فضاءات مهمة لإعداد الكائن البشري وتأهيله

(1)- أستاذ بقسم العلوم الإنسانية، جامعة عبد الحميد بن باديس، كلية العلوم الاجتماعية، مستغانم.

(2)- نبيل السملوطي، البناء النظري لعلم الاجتماع، الدار المصرية للكتاب، ص 145.

للحياة الاجتماعية ضمن شبكة مركبة متعددة الروابط، يطلق عليها بمصطلح العلاقة،⁽³⁾ بدءاً من الأسرة إلى الكتائب، الزوايا، المدرسة وجماعة الأقران وعلاقات الجوار التي مثلت كلها صمام أمان القيم والمعايير الاجتماعية لضمان استمراريتها وصورها من التفسخ والاستلاب الحضاري.

ولا شك بأن هذه المؤسسات تختلف في بعضها بحكم طبيعة المجتمع، يضاهيها في ذلك الاختلافات التي تصاحب معاني التنشئة الاجتماعية التي اتخذت لدى الفاعلين في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية جملة من المقاربات على شاكلة المقاربة السوسيولوجية والمقاربة النفسية ثم المقاربة الثقافية.

أ / المقاربة السوسيولوجية:

يقوم المجتمع من خلال عملية التنشئة الاجتماعية على تعزيز وتقوية الرباط الاجتماعي بتشجيع بعض الأنماط السلوكية المرغوب فيها اجتماعياً، كتلك التي تتوافق مع معايير وقيم المجتمع وحضارته، ويقوم في الحين ذاته بمقاومة أنماط سلوكية أخرى كتلك الأنماط المنبوذة اجتماعياً كضرب من ضروب التزام أفرادهم بقيمه واتجاهاته... ويتضمن ضبط السلوك الفردي والاجتماعي،⁽⁴⁾ وعليه، كلما كان المجتمع متشبهاً بعرفه وعاداته وتقاليده وعمل على توريث قيمه للأجيال، إلا وكانت المؤثرات الخارجية أقل وقعا وفاعلية في زحزحة منظومته التراثية المادية والروحية، وعلى النقيض من ذلك، فإنه يكون ميداناً خصباً لهذه المؤثرات.

ب / المقاربة النفسية :

تعتبر التنشئة الاجتماعية وسيلة يكتسب من خلالها الفرد المعايير والمعارف ونماذج السلوك والقيم التي تجعل منه فاعلاً في المجتمع. أما الإعداد والتهيئة النفسية فتساعده على الاندماج داخل النظام الاجتماعي لجعله جزءاً من شخصيته وهويته. وبمعنى آخر هي فن تعلم الحياة الاجتماعية.

ج / المقاربة الثقافية :

يذهب هذا التيار حسب "كاردينر" إلى أن بنية الشخصية تخضع لنسق منظومة قيم المجتمع التي تُطبع بطابع المجتمع الذي يعيش في كنفه الفرد. فكل نسق سوسيو ثقافي تقابله شخصية قاعدية ما، مما يعني بأن التنشئة الاجتماعية عملية يتم على إثرها نقل المجتمع لقيمته وموروثه للأجيال اللاحقة كشكل من أشكال البرمجة التي تضبط الفرد بطريقة ميكانيكية وشكل من أشكال العمليات الاجتماعية والبناءات التي تتجه لمنع الانحراف أو الحد منه.⁽⁵⁾

2. مؤسسات التنشئة الاجتماعية:

لا شك بأن عملية التنشئة الاجتماعية تتم عبر مسارات ومؤسسات اجتماعية متعددة، أهمها:

(3)-علي عبد الرزاق الجبلي، قضايا علم الاجتماع المعاصر، بيروت، دار النهضة العربية، سنة 1984، ص 204.

(4)-عثمان عمر بن عامر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ليبيا، منشورات جامعة قاريونس بنغازي، الطبعة الأولى، 2002، ص 70.

(5)-مصلح الصالح، الضبط الاجتماعي، عمان، الورقة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2000، ص 20.

2. 1 الأسرة: وهي النواة الأولى لتوريث الثقافة للأبناء وتعد أهم الفضاءات وأقوى الجماعات تأثيراً في توجيه سلوك الطفل وتكوين شخصيته، وهي بمثابة المدرسة الاجتماعية الأولى التي تطبع سلوك الطفل بالطابع الاجتماعي .

2-2 المدرسة : هي المؤسسة الاجتماعية الرسمية الثانية بعد الأسرة، والتي تقوم بوظيفة التربية والتعليم، متضمنة في برامجها نقل الموروث الثقافي للمجتمع بما في ذلك المعايير الاجتماعية، إضافة إلى تهيئة الظروف المناسبة لنمو الطفل نموا ذهنيا وسلوكيا واجتماعيا مترنا ليقوم بأدواره الاجتماعية بشكل متوازن.

2-3 فضاءات العبادة: تعكف فضاءات العبادة كالكتاتيب، المساجد والزوايا على تعليم الفرد وهو طفلا صغيرا - كما هو الحال بالنسبة للراشدين- على نشر التعاليم الدينية السائدة في المجتمع، وهي إذ بذلك تضع الفرد في إطار سيكولوجي وسلوكي معياري يهدف إلى ضبط وتنمية وتوحيد السلوك الجمعي بما يخدم المصالح الخاصة والعامة.

2-4 جماعة الأقران: وهي فضاء مهم للاحتكاك والتجربة واندماج الطفل بالمجتمع، كما أنها تعمل على إشباع حاجاته النفسية لتعزيز المكانة والانتماء من خلال عملية التأثير والتأثير، وهي تشكل ذلك الإطار الذي يكتسب الطفل من خلاله اتجاهات نفسية جديدة قد يماثل خيرها شرها .

2-5 وسائل الإعلام: يميّز "روشي" بين شكلين من التنشئة الاجتماعية، إذ أن هناك تنشئة اجتماعية تولى مسؤوليتها على عاتق الأسرة والمدرسة، وتنشئة اجتماعية أخرى يتعدى نطاقها إلى الوسائط الإعلامية كالإذاعة والتلفاز والكتب والمجلات والصحافة وقدرتها على تسخير مؤثرات مشوقة ومغرية وجذابة، وهو ما يؤهلها لاستمالة المستمع والمشاهد والقارئ.

أما وسائل الإعلام فإنها تجسد كافة أوجه النشاط الاتصالي الذي يهدف إلى تزويد الفرد بالحقائق والأخبار والمعلومات والموضوعات ومجريات الأحداث والقضايا السياسية والاجتماعية والاقتصادية المطروحة⁽⁶⁾ لإشباع الحاجات النفسية المختلفة للفرد، كما يمكن لها أن تدعم اتجاهاته أو تقوم على تعديلها. إلى جانب دورها القائم على التوعية و التربية والتثقيف.⁽⁷⁾

عينة العلاقات	عينة الجماعات
علاقة الصداقة	جماعة اللعب
علاقة الزوج بزوجه	جماعة الأسرة

(6) عبد الله بوجللال، الإعلام والرأي العام في الأقطار النامية والعربية، المجلة الجزائرية للاتصال، العدد 7، سنة 1992، الجزائر، ص 55.

(7) تمار يوسف، الإرهاب وإشكالية العمل الإعلامي، مجلة اتحاد إذاعات الدول العربية، العدد 4، تونس 2007، ص 44.

ويلخص لنا كتاب المدخل من العلاقات الأولية والثانوية الاجتماعية	علاقة الوالد بطفله علاقة التلميذ بمدرسه	جماعة الجيرة أو القرابة فريق العمل	إلى علم الاجتماع ⁽⁸⁾ أشكالاً ذات الأهمية في عملية التنشئة بتصرف على النحو الآتي:
--	--	---------------------------------------	---

3. رهانات التنشئة الاجتماعية في ظل وسيط التلفزيون:

لقد أصبح الاتصال عن طريق الأقمار الصناعية من أبرز سمات عصر المعلومات أو ما يسمى بمرحلة ما بعد الثورة الصناعية التي تميزت بظهور دول ذوات اقتصاد يعتمد أساساً على التقنية وتكنولوجيا المعلومات كمورد يتعدى نطاقه الاقتصاد إلى نطاق الثقافة.

ومن الموضوعات التي أخذت حيزاً مهماً في البحوث والدراسات السوسيولوجية، تلك المتعلقة بفضاء الاتصال وضلوع وسائل الإعلام في تأثيرات جمّة على مستوى الجبهة الاجتماعية والتي طرحت بدورها زخماً من التساؤلات التي تبحث في طبيعة هذا التأثير فيم إذا كان يتخذ منحاً إيجابياً أم أن نطاقه يتعدى إلى جوانب أخرى؟

وبما أن لكل ثقافة طابعها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الثقافات، فإن كل مجتمع يسعى إلى طبع الأفراد بطابع ثقافته، لذلك ينشأ أفراد الثقافة الواحدة ولهم طابع مشترك يميزهم عن أفراد ثقافات المجتمعات الأخرى، كما يؤدي تسرب هذا الطابع إلى اشتراك في الميول والاتجاهات النفسية ونمط التفكير والعمل. وبالرغم من التشابه بين أفراد الثقافة الواحدة بحكم طبيعة التنشئة المشتركة فيها، إلا أنهم يختلفون في بعض جوانب شخصيتهم نتيجة التباين الذي يتأرجح بين ما هو وراثي وآخر مكتسب كالاختلاف في القدرات العقلية والمزاجية أو الانتماء إلى مستويات اجتماعية معينة.

ومن أهم العوامل الخارجية المسهمة في التنشئة الاجتماعية التي نصبو إلى تحديد مآلاتها، ذلك الواقع الجديد للقنوات الفضائية بالجزائر الذي أوجد بدوره واقعا آخر يتعامل معه الفرد الجزائري لا سيما فئة الأطفال في ظل السيل العرم من القنوات الفضائية التي تتمتع بدرجة من الحرية للتعبير والتنفيس وتقديم مضامين جادة من جهة، وأخرى لا تقدم سوى الشكل والمضمون المبتذل من أجل اجتذاب الفرد نحو مضامين لم يتعود عليها من قبل.⁽⁹⁾

(8)- خالد حامد، المدخل إلى علم الاجتماع، الجزائر، جسور للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1429هـ، سنة 2008 م، ص 36.

(9)- عبد الرزاق محمد الديلمي، عوامة التلفزيون، الأردن، دار التحرير للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 2005، ص 55.

إن عامل التشويق في التلفزيون وقدرته على الإيصال والتأثير، يخول له إمكانية شدَّ انتباه المشاهد وجعله ملزماً على المتابعة لفترة طويلة دون كلل، ويكون الأمر أكثر وقعا وفاعلية وأبعد ديمومة على شريحة الأطفال بشكل خاص، نظرا لما يخلفه من انعكاسات على نفسية الطفل وتكوينه الشخصي المعرفي والسلوكي وهو يحصل على المتعة والترفيه، فينسى نفسه وكل ما حوله، لاسيما وهو يتعرض إلى برامج تعتمد على الصور والرسوم والأشياء المتحركة أو من خلال مسرح الدمى، حيث يتابعها بشغف، معجب بذلك بالحيوانات أو الدمى التي تتكلم كما يتكلم الإنسان، وهكذا يستغرق في المشاهدة والسماع بعد أن يسيطر التلفزيون على حواسه وعقله. وهو ما يدفعنا إلى القول بأن تفاعلية الطفل بالتلفزيون قد تتخذ بعض الجوانب الإيجابية وأخرى قد تكون سلبية. أي أن خير التلفزيون يماثل شره، فهو ذو أهمية كبيرة من حيث تعزيزه لبعض القيم الإيجابية بناء على ما يمدّه للأطفال من معلومات في مواضيع تفيدهم في مراحل تعلمهم، إلى جانب ترسيخ مفهوم العادات الاجتماعية السليمة والأخلاق الحميدة، ويبيدهم عن السلوكيات السلبية التي ينفر الناس منها،⁽¹⁰⁾ ما ينعكس إيجاباً على البناء الشخصي للطفل. كما يحمل التلفزيون نوعاً من الخطورة أيضاً وهو يكرس بعض القيم السلبية على شاكلة برامج العنف والجريمة. فالبرامج التي تحمل جانبا من العنف والجريمة وطرق الاحتيال والخداع، تعزّز في نفسية الطفل الرغبة في تقليد هذا السلوك، وهو ما جعل بعض الأخصائيين يرون بأن التلفزيون يعد سببا مهما من ضمن عدة أسباب تعمل على إذكاء روح العنف⁽¹¹⁾ لدى الطفل، خصوصا لما يتعرض في مشاهدته لمظاهر التعذيب أو التنكيل والانحراف والانحلال الخلقي التي تخلق لديه ردود أفعال معادية تجاه أترابه ومجتمعه وتجعله طرفا مشاركا فيها، لا لشيء إلا لأنه لم يبلغ بعد المرحلة التي يمكن له فيها أن يحلّل الحدث بإيجابياته وسلبياته. إضافة إلى أن التأثيرات التي تضاف إلى قائمة مساوئ التلفزيون، تقلصه من حجم العلاقات الاجتماعية ويقضي عليها أحيانا، كما يعزز لدى الطفل طابع الانطوائية. ويشير "لويس كوهن" إلى أن كثيرا من برامج الأطفال تشجع الطفل على اكتساب مستوى منحط من الذوق لا يليق بالحياة الاجتماعية.⁽¹²⁾ كل ذلك في غياب دور الأسرة في الإرشاد والتوجيه وعجزها أحيانا على إيجاد فضاءات أخرى تكون بديلة عن التلفزيون كألعاب الخلاقية حتى ينشغل الطفل بها، ومثل هذه الألعاب بإمكانها أن تذكي لديه روح الإبداع. فالأسرة المعاصرة أضحت تفضل إبقاء طفلها لفترة طويلة وهو يشاهد التلفزيون حتى يخفّف عنها أعباء مراقبته داخل المنزل أو خارجه.

في ظل الحديث عن الفضائيات فقد سعت هذه الأخيرة خاصة التي تحمل شعار العروبة والإسلام إلى ترويج أساليب حياة لا تنسجم مع قيمنا وعاداتنا وتقاليدنا الجزائرية التي تعد جزءا لا يتجزأ من مرجعية الهوية العربية والإسلامية، مما جعلنا نصطدم بمضامين تشبه إلى حد أكبر بما لا يمكن أن نجده بالقنوات الغربية ذاتها التي لدى شعوبها طابعها ومعتقداتها الخاص الذي يُحول لها ضمن هذا الطابع أن تبث ما تشاء. ثم إن كثيرا من الشباب

(10)- أبو معال عبد الفتاح، أثر وسائل الإعلام على الطفل، ط1، عمان، سنة 1990، ص 66.

(11)- أديب خضور وآخرون، التلفزيون والأطفال، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1990، ص 67.

(12)- كرم، جبران جان، التلفزيون والأطفال، ط1، بيروت 1988، ص 14.

الجزائري يتصور بحسب زعمه أن تقليد الغرب ومحاكاة نمط حياته هو السبيل الذي يفضي إلى التطور، وهو ما جعله يتشبع ببعض المفاهيم الغازية التي هي امتداد للثقافة الغربية والتي أضحت ترتسم على سلوكه ونمط معيشتة كالتمرد على الواقع والانقلاب على القديم والموروث بكل جوانبه ومجالاته⁽¹³⁾، بحيث أصبح ودون وعي منه أحد الدعاة لهذه الأنماط. فبدل أن يكتسب الفرد -باسم التحضر- "ثقافة حضرية" يتم على إثرها توظيف الإطار المعماري⁽¹⁴⁾ والمؤسسي الذي يضمن الترتيب الوظيفي للأفراد ودرجة تفاعلهم وأهميتهم الإدارية ووعيهم بوجودهم وفق مرجعياتهم، إلا أنه انجر وبصورة شكلية نحو التحضر من حيث التبرج بمختلف أشكاله وابتداع الألفاظ التي تُحيل حسب زعمه وفهمه إلى نمط معيشي راق وخاص، ليتقوقع على نفسه في الأخير متجاهلا معاني التحضر الأصيل كالتشبع بالقيم الأخلاقية والثقافية والسمو بالمعرفة، لأنه لا حضارة ولا تحضر بدون معرفة.

وفي معرض الحديث عن الزخم الفضائي العربي والغربي وتشكيلة برامج المتنوعة، فقد شكل أحد عناصر عزل شعوب الأمة العربية لاسيما الجزائرية منها عن عناصر بناء ذاتها، وجعلها في حالة اغتراب دائم بفعل الاختراق الذي تتعرض له مقوماتها لأجل منع أي محاولة لبناء قاعدة حضارية لاسترداد ذاتها. وإسقاطا على كلام "محمد أركون"، فإن العملية تستوجب عملية معرفية شاملة تجمع بين... التساؤل التاريخي والتدبير الفكري⁽¹⁵⁾ لأن المسألة في غاية التعقيد التي لم تعد مبنية على الغزو العسكري فحسب، وإنما هناك آليات أخرى على شاكله حرب التقنية التي باتت استعمارا رهيبا من منطلق أنه من يمتلك التكنولوجيا يمتلك القوة، هذه القوة التي أضحت بديلة عن المؤسسات التقليدية في عملية التنشئة، وساهمت في انهيار العلاقات الأسرية وإنكار الذات وتقلص حجم التفاعل البشري وخلق نوع من الاغتراب النفسي والاجتماعي الذي صار على إثره الشباب في مفترق الطرق، أي بين واقع افتراضي بفعل ما تسوقه الفضائيات من مثلٍ وبين ماضٍ تقليدي قديم مغلق ومهيمن يدفعه لأن يكون مجبرا للانتماء إليه .

(13)- عدنان علي رضا، نظرية تقويم الحداثة، السعودية، دار النحوي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 1992، ص 26.

(14)- إن المدينة لا تعني مطلقا حشودا بشرية كبيرة وتجمعات سكانية ضخمة تحسب على اتساع الرقعة الجغرافية بتزايد المباني مع احتمال تزايد ظاهرة النزوح البشري من الأرياف والبادي التي يصاحبها تدفقا لكثير من الأنماط السلوكية. كما تبرز بعض المظاهر السلبية نتيجة الفوضى السكنية التي تخل بالبيئة السكنية ومورفولوجية النظام العمراني والبيئة الطبيعية، تزداد معها الأعراض الصحية وبعض الأمراض الاجتماعية كظاهرة المخدرات، التسول، الاغتصاب والقتل والاعتداء على ممتلكات الغير... الخ. ومن المظاهر الغربية التي عمت مدننا الجزائرية في الآونة الأخيرة تردّي أوضاعها على عديد من المستويات إلى درجة يخيّل للمشاهد وكأنها مداشر كبرى. ومن المفارقات العجيبة إحراز العاصمة "الجزائر" على جائزة "ليما" سنة 1958 حينما صُنفت كأفضل مدينة في البحر الأبيض المتوسط لتتحول إلى أكوام من الإسمنت المسلح المتراص بطريقة فوضوية، قس على ذلك مختلف المناطق السكنية بالقطر الجزائري، وأقصد بذلك فوضى العمران وتكدّيس في البناءات الذي تتخلله أكوام القاذورات والأوساخ، فغاب التصميم الجمالي للعمران والحضارة والتمدن.

(15)- محمد أركون، الفكر العربي، ترجمة، عادل العوا، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، سنة 1983، ص 21.

* الخاتمة:

إذا أضحي التلفزيون وسيلة ميسورة مشوّقة ومحبّبة من أجل الترفيه والتسلية، وكمصدر للمعلومة والمعرفة ونشر الثقافة، فمن الأهمية بمكان أن تخضع برامجها إلى تخطيط واع من قبل القائمين على هذا الجهاز الإعلامي الخطير، وتوظيفه في الاتجاه الصحيح لإعداد الأجيال إعدادا صحيحا.

وإذا كان لا بد من خاتمة، فسنكون مضطرين للحديث عن أهمية الرباط الاجتماعي الحيوي الذي يشد اللحمة بين أعضاء الأسرة والعائلة بوصفها دعامة اجتماعية أساسية في عملية تنشئة الطفل إلى جانب المدرسة وفضاءات العبادة ومنظومة وسائل الإعلام بما يعبر عن البعد الهوياتي للمجتمع الجزائري في ظل الإنبعاثات الثقافية لوسائل الإعلام، وذلك بتفعيل مقومات الاستقرار الاجتماعي من خلال توريث رأسمال العائلة الممتدة وغرس الوازع الديني والقيم والمعايير الاجتماعية ونشر الوعي المضاد للوعي الزائف، وما للمؤسسات الرسمية للدولة الجزائرية دور في رسم الآليات التي يتم بناء عليها رسم خطط مستقبلية، تكون بدورها مبنية على دراسات معمقة تبحث في الأوضاع الراهنة للسياسة والإعلام والاقتصاد والاجتماع والثقافة وغيرها من النشاطات بما يبعث ويحقق الأمن والاستقرار الاجتماعي.